الإصلاح الديني في أوربا

في بداية العصر الحديث

الإصلاح الديني حركة دينية مسيحية انطلقت من جسم الكنيسة الكاثوليكية لتصحيح أوضاعها الداخلية وتنقيتها من الشوائب التي التصقت بها عبر العصور، وإعادتها أكثر إلى روح المسيحية وتسهيل التواصل بين المؤمنين والرب. وقد جاء تتويجا لحركة قديمة؛ بدأت منذ مدة في أوساط البلاط البابوي والمفكرين المتنورين، واستجابة لتطور الوضع والعقلية الأوربية في بداية العصر الحديث وعهد النهضة. والحركة في عمقها وسيلة لتقوية المسيحية عكس ما يظهر من اتجاهها نحو إضعافها، كما أنها محاولة من أوربا الوسطى والشمالية للتخلص من الهيمنة المتوسطية وعقلية حوض البحر المتوسط. وقد امتدت على مدى ثلث قرن تقريبا واجتاحت أوربا عدا الأجزاء المتوسطية وتسببت في صدامات وحروب ودفعت الكنيسة الكاثوليكية إلى القيام بإصلاح داخلي فيما يعرف بالإصلاح المضاد.

1- إرهاصات الإصلاح الأولى

بدأ الإصلاح في العصر الوسيط الأخير، واتخذ شكل حركات انفصالية أو هرطقات وطرق مبتدعة. وانطلقت أهم التغيرات سنة 1305م عندما بدأ ما يسمى بفترة "الأسر البابوي" التي امتدت على مدى 72 سنة. فعندما انتخب الفرنسي كليمنت الخامس بابا بدعم من العرش الفرنسي نقل مقر الكنيسة إلى مدينة أفينيون الصغيرة قرب ليون شرق فرنسا، فتسبب في ضعف الكنيسة وتراجع نفوذها وكثرة الانقسامات بين الكرادلة وبلغت ذروتها سنة 1378م بانتخاب رجلين في منصب البابا: واحد موال للعرش الفرنسي في أفينيون والثاني معارض له في روما وسمي العهد ب "الانقسام العظيم" مما زاد من ضعف الكنيسة وصراعات رجالها. لكن رجالا غيورين وعقلاء نجحوا في عقد مجمع كونستانس سنة 1414م بحضور كل دول أوربا الغربية وتوج بإعادة وحدة الكنيسة وانتخاب بابا واحد وهو **مرتين الخامس** الذي استقر في روما. لكن البابوات لم يستغلوا هذا النجاح لتوقيف الفساد ومحاربة عوامل الضعف، فزادوا

من الاستبداد وانغمسوا في حياة الترف والاستمتاع بالحياة وبحثوا عن المال بكل الوسائل مما أثار عليهم غضب المجتمع وتنديد المتنورين المطالبين بالإصلاح.

اشتهر رجال متنورون بالدعوة المبكرة إلى إصلاح الكنيسة ومنهم الإنجليزي ويكليف (ق14م) الذي دعا إلى فرض الإصلاح على البابا ودافع عن إمكانية الخلاص دون وساطة الكنيسة، ولقيت أفكاره استجابة واسعة. وفي بوهيميا (تشيكوسوفاكيا الحالية) ظهر هس (1376-1470م) الذي دعا إلى التمسك بالكتاب المقدس وترك صدى واسعا وواجه حربا من الكنيسة. وفي الأراضي المنخفضة ارتفع صوت إرازم (1466-1536م) بضرورة فهم حقيقة الدين وواقع الكنيسة وانتقد رجال الدين وكشف مساوئهم وعيوبهم وطالب بإصلاح الكنيسة، وترجم الكتاب المقدس لتسهل على الناس قراءته بلغاتهم المحلية. وبالرغم من غضب الكنيسة من هذه الدعوات وغيرها ومحاربتها لها إلا أنها لم تتحرك للإصلاح أو التغيير الذاتي وأصرت على مواصلة مسيرتها بنفس الطريقة والنهج.

2- الإصلاح الديني

2-1- عوامل الإصلاح

استغل البابوات النفوذ الكبير الذي حظوا به في أوربا وأوساط المؤمنين لينغمسوا في الحياة وتشبهوا بالأمراء في قصورهم الفخمة ووفرة أموالهم وتضخم ثرواتهم التي لم يتركوا وسيلة ممكنة إلا ولجأوا إليها لجمعها، وقد عم هذا الفساد في كل الهرم الكنسي. وصار إسناد المناصب يتم مقابل مبالغ مالية ضخمة، ولم يعد الأساقفة يقيمون بأسقفياتهم بل يكتفون بتعيين نواب يتكلفون بجمع الواجبات المالية في أوانها أما الواجبات الدينية فلم يعد أحد يلتفت إليها إلا في المناسبات. واخترع البابوات وسائل متنوعة لنهب أموال المؤمنين مثل: النذور ووصايا الأموات للكنيسة والتبرعات والأقساط من الإرث وصكوك الغفران وغيرها... وتعتبر هذه الأخيرة الوسيلة الأكثر انتشارا وإثارة للانتقاد، وكان البابا بونيفاس السابع قد استحدثها سنة 1300م بإصدار مرسوم سمي ب "الغفران" Indulgence، ونص على أن كل شخص اعترف بذنوبه بشكل كامل وندم على خطاياه بصدق فإنه ينجو من العذاب الأخروي شريطة

أن يدفع هبة مالية. وكان رسل البابا ينتشرون في المدن والقرى لجمعها ويمارسون كل أشكال الابتزاز والسرقة والرشوة مما زاد من تقزز الغيورين على الكنيسة وغضبهم.

كانت المناطق التي تعاني من الانقسام السياسي وغياب سلطة مركزية قوية أكثر عرضة لابتزاز البابوات وعلى رأسها ألمانيا، بينما نجحت الحكومات القوية في حماية رعاياها من ذلك كما هو الشأن في فرنسا، ولهذا كانت ألمانيا مهد الإصلاح.

لم يرغب البابوات في البقاء في الظل وصاروا يتشبهون بالحكام الزمانيين، ومارسوا حياة اجتماعية عادية وعلنية مثل: الزواج وتكوين الأسر وإنجاب الأبناء كما اتخذ بعضهم عشيقات. وشاركوا في النهضة واستقطبوا الفنانين ورعوهم وكلفوهم بإنجاز أعمال ضخمة ورائعة استمتعوا بها. وتسببت هذه الأمور كلها في صدمة للمسيحيين وحطمت الصورة المثالية المرسومة في أذهانهم لرجل الدين، مما أغضبهم وسهل إقناعهم بتحطيم هذا الجهاز الفاسد.

عرفت بعض مناطق أوربا وخاصة شمال إيطاليا وألمانيا ظهور حركات صوفية قوية استجابت لخوف الناس من المصير والمستقبل بفعل توالي الأزمات والكوارث (حروب-أوبئة)، وأعطت بعدا جديدا للعبادة يقوم على الاتصال المباشر مع الخالق بعيدا عن كل وساطة كنسية، واعتماد التقشف والزهد في الحياة وترفها والحفاظ على نقاء الدين الذي يستقى من منبعه الأول الذي هو الكتاب المقدس دون غيره من كتابات الكنيسة.

إن انتشار فكر النهضة وما حمله من تمجيد للإنسان والعقل خلق إنسانا جديدا متشبعا بالعلم وروح النقد وعدم التسليم بالأمور ببساطة والحاجة إلى الإقناع بوسائل قوية ومنطقية، والاستعداد للنقد وكشف عيوب رجال الكنيسة وتجاوزهم إن اقتضى الحال ذلك. وقد انتقد رجال النهضة الكنيسة بشدة وأظهروا مساوئها وعيوبها ومدى مخالفتها لتعاليم الدين الحقيقية.

حملت بداية عصر النهضة أزمة اقتصادية للفئات التقليدية في المجتمع الأوربي خاصة النبلاء والفلاحين، فارتفاع الأسعار وتزايد النفقات جعلهم يعيشون أزمة مالية حقيقية فالتجأ الأوائل إلى حلها على حساب الأواخر برفع الواجبات والكلف الفيودالية، فتأزمت وضعيتهم أكثر دون أن تحل أزمة الآخرين. فأصبح الكل يريد التخلص من أعباء الكنيسة وإسقاطها للسيطرة على أراضيها وممتلكاتها.

= فساد الكنيسة وجشع رجالها وميولهم الدنيوية واصطدامها بالتدين الصوفي وفكر المتنورين من رجال النهضة وغيرهم والأزمة الاقتصادية كانت وراء تفجر حركة الإصلاح.

2-2- مظاهر الإصلاح

بدا الاصلاح على يد الألماني مارتان لوثر (1483-1546) المولود بقرية ثورينجيا في مقاطعة ساكسونيا من أسرة فلاحية اختلف في تحديد وضعها بين اليسار والفقر. بدأ دراسته في القانون لكنه لم ينهها وحصل على دكتوراه في اللاهوت، وعين أستاذا في جامعة فتنبرغ سنة 1510. وانخرط في سلك الرهبنة منذ 1505 وتوج راهبا بعد سنتين. ونجح في استقطاب الطلبة والتفافهم حوله بفضل الأفكار التي كان ينشرها. وقام برحلة حج إلى روما ما بين (1513-1518) فوقف على مظاهر الفساد والجمود التي تعيشها الكنيسة في روما وعاد ساخطا على الوضع. وكان لوثر ينتمي إلى التيار الصوفي الألماني حيث سكنه هاجس تحقيق الخلاص الشخصي وبحث عن الوسيلة المثلى لذلك باستمرار، وأثناء حجه وبالضبط في سنة 1515 اكتشف قولة للرسول بولس في رسالته إلى رومية جاء فيها: "أما البار فبالإيمان يحي" فاعتبرها أساس ومصدر الخلاص وبنى عليها باقي أفكاره الإصلاحية.

أعلن عن أفكاره في 31 أكتوبر عام 1517 عندما وصل الراهب تتزل جون مبعوث البابا إلى قرية فوتنبرغ لجمع صكوك الغفران لبناء كنيسة القديس بطرس، حيث علق وثيقة على باب الكنيسة تحرم صكوك الغفران وتكشف كثيرا من أفكاره الإصلاحية. ولقيت أفكاره صدى واسعا في كل الإمبراطورية الألمانية وخارجها، فانتقدته الكنيسة بشدة ثم حصلت القطيعة بين الطرفين عام 1520. وبعد سنة طالبه مجمع وورمس Worms الذي حضره الإمبراطور شارل كينت بالتوبة والعودة عن أفكاره فرفض ذلك فطرد من الكنيسة وأهدر دمه. التجأ لوثر إلى حاكم الساكس في وارتبرغ Wartburg وعكف على التأليف في قصره وزادت أفكاره شيوعا وانتشارا مستفيدا من دعم شريحة مهمة من رجال الدين الشباب من ذوي الميول الإنسية خاصة ومن النبلاء والإنسيين في المدن ثو البورجوازية. وبالرغم من النكسة التي تعرضت لها حركته بثورة النبلاء الصغار (1522) والفلاحين (1524) وفقدانه لدعم النبلاء وتراجع نفوذه في البوادي، فقد تواصل نجاح إصلاحه وانتشار أفكاره لتغزو البلاد المجاورة

في الاتجاهات الأربع. ولم يمت عام 1546 حتى انتشرت حركته في البلاد الإسكندنافية وسويسرا وفرنسا والأراضي المنخفضة، وصار له تلامذة مصلحون تبنوا أفكاره وطوروها وخلقوا مذاهب خاصة وعلى رأسهم يوحنا كالفن وهولديخ زوينغلي Huldych ZWINGLI وبوسير BUCER، فصارت جنيف وزوريخ وستراسبورغ مراكز إصلاح لا تقل أهمية عن فوتنبرغ.

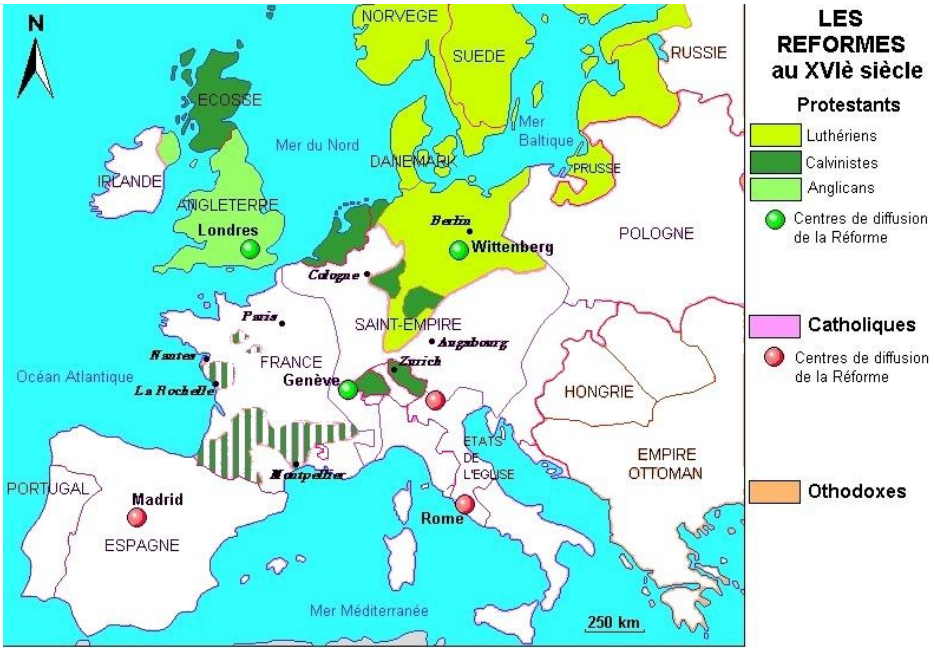

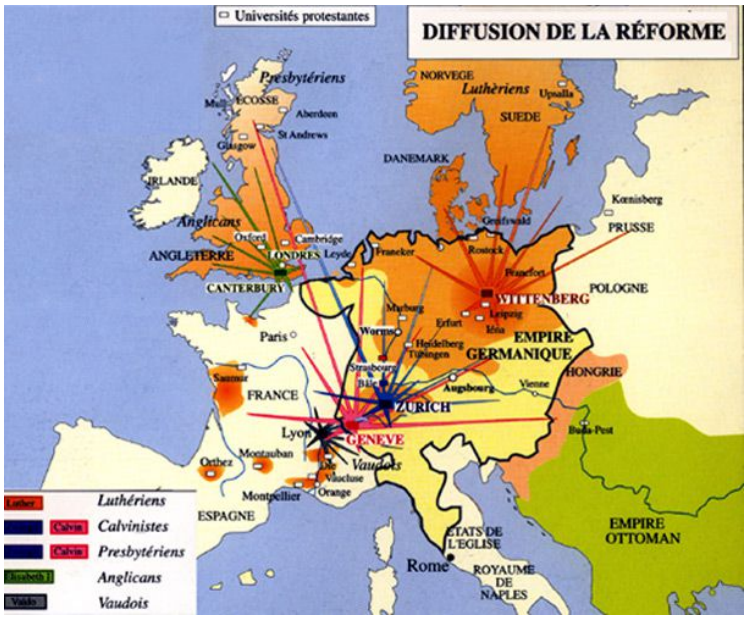

تمحورت أفكار لوثر والمصلحين بعده حول فكرة الخلاص وكيفية تحقيقه، وضمت العناصر التالية بالرغم من بعض الاختلافات الجزئية:

- الانجيل وحي إلهي وهو مصدر العبادة وتكفي قراءته للتعبد، أما باقي النصوص والسير والكتابات الكنسية فهي غير ضرورية.
- الخلاص يتحقق بالإيمان دون العمل، لكن كالفن أضاف أنه مشروط برغبة الرب وإرادته وليس حتميا.
- الكنيسة تجمع للمؤمنين بمختلف مواقعهم ومراتبهم.
- البابا والقساوسة وكل رجال الدين بشر وليسوا معصومين وهم معرضون للخطإ والصواب والثواب والعقاب، كما أن من حقهم ممارسة كل الأعمال البشرية وخاصة الزواج (دافع عنه كالفن وزونغلي).
- تبسيط الكنيسة كمقر للعبادة بالتخلص من كثرة الصور والايقونات والاكتفاء بالأشياء الضرورية كالكراسي والمقاعد والكتاب المقدس. وقد وضع كل المصلحين قداسا خاصا بهم باللغة التي يحسنها أتباعهم بدل اللاتينية (وضع لوثر قداسا ألمانيا عام 1525).
- علاقة الكنيسة بالسلطة الزمنية:
  - الكنيسة تابعة للأمير وخاضعة له (لوثر).
  - اندماج الكنيسة والدولة في مؤسسة واحدة (زوينغلي)
  - هيمنة الكنيسة على شؤون الدنيا (حكومة كالفن التيوقراطية في جنيف).

وبالرغم من الاختلافات التي وصلت أحيانا إلى حد التناقض، فإن ما يجمع بين هذه التيارات هو إتيانها بأفكار جديدة ولذلك تجمع ويطلق عليها اسم التيارات البروتستانتية. وقد بدأت بأفكار لوثر وطورها باقي المصلحين ونشروها في نسخ جديدة خاصة في أوربا الشمالية والشمالية الغربية بعيدا عن المجال المتوسطي الكاثوليكي ذي التقاليد الدينية العريقة، فنشأ تعارض بين شطري القارة العجوز. وعندما انتهى المخاض واتضحت الصورة صارت أوربا على الشكل التالي:

- اللوثرية: الدانمارك والنرويج وإيسلاندا والسويد والبلطيق وفنلندا وأغلب الأراضي الألمانية= العالم الجرماني- السكندنافي
- الزوينغلية: مدن ألمانية وسويسرية.
- البوسيرية: ستراسبورغ في شمال شرق فرنسا.
- الكالفنية: فرنسا وسويسرا وريناني وشمال غرب ألمانيا وبولونيا وبوهيميا وهنغاريا والأراضي المنخفضة وسكوتلاندا وانجلترا. (يسمون الهكنوت في فرنسا Huguenots).

ويجب أن نشير إلى أن هناك فرقا واضحا بين هذه التيارات فيما يخص مجال انتشارها. ففي الوقت الذي نجد لوثر قادرا على غزو البوادي والمدن على حد سواء، نلاحظ أن التيارات الأخرى ذات توجه حضري في تفكيرها وتنظيرها وتنظيمها.

وبعيدا عن هذه الحركات الأصيلة عرفت إنجلترا قيام حركة إصلاحية عرفت بالإنجلكانية بزعامة الملك هنري الثامن ملكها، وقد كانت المصالح الملكية الشخصية والعامة الباعث وراءها. وأهم أسبابها:

- رغبة هنري 8 في التخلص من الملكة كاترين الأراغونية والزواج بوصيفتها إلينا بولين، ولما رفض البابا ذلك بإيحاء من الملك شارل الخامس انفصل عن الكنيسة البابوية ونفذ رغبته سنة 1527م.
- انحياز البابا إلى شارل الخامس في تحكيمه في النزاع بين الملكين حول الأراضي المنخفضة.
- رغبة هنري8 في التقليل من نفوذ الكنيسة في بلاده وعلى رعاياه.
- الرغبة في السيطرة على أراضي الكنيسة وممتلكاتها.

ونظرا لكون الإصلاح ذي دوافع سياسية واجتماعية خاصة بالملك فلم يأت بتغييرات كبيرة. فبعد طرد الملك من الكنيسة سنة 1534 أصدر البرمان قانون السيادة الذي نص على:

- إبعاد النفوذ البابوي ومنع ذكر اسمه في البلاد.

- اعتبار الملك رئيسا للكنيسة.
- اعتبار انتخاب رجال الإكليروس من مهام الملك.

ونتج عن هذا القانون إلغاء نظام الأديرة وبيع ممتلكاتها للأرستقراطية. وفي سنة 1536 صدر قانون "اعتراف الإيمان" (عشر مواد) تأخذ من اللوثرية بعض عناصرها وتحتفظ بأغلب الأفكار الكاثوليكية. ثم صدر قانون "السوط ذو الستة حبال" (ست مواد) سنة 1539 ينص على:

- مساندة عقيدة تحول القربان إلى جسم المسيح ودمه
- تجاهل ضرورة الاتحاد بين الجنسين
- الاحتفاظ بالقداس
- منع زواج رجال الدين
- الاحتفاظ بالقداس المستقل
- الاحتفاظ بالاعتراف السمعي.

وفي 1543 صدر "كتاب الملك" "King's Book" الذي يظهر عداء سافرا للبروتستانتية، ويحافظ على الفكر الكاثوليكي على الصعيدين الديني واللاهوتي فأحبط آمال الطرفين المتنافسين معا. وبعد تولي إدوارد السادس (1547-1553) طبق البروتستانتية بقوة، لكن الملكة ماري تيودور (1553- 1558) قمعت البروتستانت واضطهدتهم. ولما تولت إليزابيث تقوت الأنجليكانية وتأسست كنيسة تابعة للدولة استلهمت كثيرا من عناصرها من الكالفنية.

خاتمة

استجاب الإصلاح الديني لحاجيات الإنسان الأوربي ورجل عصر النهضة في التحرر والانطلاق والفهم والتعامل مع الأشياء الملموسة أكثر. وحمل تغييرات كبيرة مثل التركيز على الفردانية والمعرفة والتكوين العميق لرجال الدين وتقريب المقدس من المؤمنين والتبشير بأخلاق جديدة تثمن العمل والحياة العائلية والإخلاص والتواضع والمسؤولية. كما ربط الدين بالسياسة والمجتمع وسرع سيطرة السلطة على الكنيسة وتوحيد السلطة داخل البلدان، وقدم دفعة جديدة للمسيحية بتجديدها بالرغم من الانقسام والصراعات التي رافقته ونتجت عنه في إطار الحروب الدينية.

%